والحق أبلج في شريعته التي جمعت فروعاً للهدى واصولا
لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفأ القنديلا
درست معالمها ألا فاستخبروا عنها رسوماً قد عفت وطلولا

ولا يخفى ان هذه المطاعن التي تنافي ماذكره المصنف وغيره من الدليل على حاجة البشر الى الشريعة ولا تليق بالوحي السماوي لاترد على المسلمين الذين يقولون بحقية التوراة والانجيل لما بيناه في الجزء الخامس فراجعه

الباب الثاني في التعليم

التدريج الفطري في تعليم الرسم والخط والقراءة[1]

(٣٢) من الدكتور اراسم الى زوجته في ١٨ ابريل سنة — ١٨٥

تلقيت رسم « اميل » فاغتبطت به ولله ما تفضلت باضافته اليه من الشرح الذي كان كالمفتاح لمغلقه فلولاه لما نفذ ذهني في سرّ خطه البرباني . لا شك ان هذه البقعة الكبيرة السوداء تمثل العاصفة والبحر المضطرب والسماء المظلمة بالسحب وهذه يدي رهن لمن شاء على أني ارى فيه السفينة الغريقة وان كانت قوانين علم المرئيات لم تراع في الرسم بالتدقيق . وذلك الشيء الطافي على وجه الماء لا بد ان يكون زورق النجاة . واما هذا الوجه المصبوغ بالمداد فلا وجه للخطأ في معرفته فهو وجه قويدون وكأني ارى بين الارتياح في الصورة الصغيرة الملقاة على الارض تلك الفتاة المنمى

(١) معرب كتاب اميل القرن التاسع عشر في التربية والتعليم

عليها التي نجت من الغرق . أراك تجدينني قد فهمت ذلك الرسم الذي لا اعرف من آثار ولدي سواه وقد علقته هو وصورته على جدار حجرتي

ان صناعة الاطفال تذكرنا دائماً بطفولية الصناعة وان تصوير بعض اشكال هذا العالم الخارجي هو ملكة غريزية في نوعنا وربما كانت هي التي تميزنا عن غيرنا من سائر الحيوانات اجلى تميز فان انسان (الغاب) الوحشي الذي لا تعرف لغته ولا تاريخه قد عُلِمَ عنه اليوم انه كان في زمن ما ينقش بالظِّران (الحجارة المحدَّدة) على الحجر او على قرن الايّل القطبي صوراً سمجة لا اثر للاتقان فيها كصورة الفيل القديم ذي القروة المسمى بالمَمُوث كما رسم بعض الحيوانات الأوابد الغريبة التي كان يغالبها في التسلط على الآجام والغاب

لدينا كذلك برهان على ان مجتمعات الانسان الاولى ما درست فنون التقليد من قبل ان تضع لنفسها قوانين ثابتة تكفل لها حاجيات معيشتها

استنتج مما قدمته ان تعليم الاطفال ينبغي ان يبدأ فيه بالرسم وهذه هي الطريقة التي تتلمسينها لنقل الطفل من التصوير الى الكتابة

لقد أحسنت النظر اذ انتبهت الى ان حروف كتابتنا لا صلة بينها وبين ما وضعت للدلالة عليه بشكلها وأنه ما ثَمَّ الا المواضعة والاصطلاح فان الطفل ما رأى في الكون شيئاً هو (ا) او (ب) . ولكن اختراع هذه الحروف هو من اعظم الآثار وضروب فوز العقل الانساني المخلدة في صفحات تاريخه . واذكري ان الامم القديمة كانت قد استعدت من زمن طويل للحروف الهجائية بممارسة الرسم ثم انتقلت منه اليه فقد استمد الفينيقيون حروفهم من الخط الكهنوتي القديم . واما أبناء هذا العهد فان

هذا الاتصال بين الرسم والخط مقطوع فى نظر الطفل الذي يتعلم القراءة والكتابة بخطهم فانه ينتقل فجأة الى عالم معنوي لا يجد فيه شيئاً يسترشد به ولا رابطة القياس والمماثلة . وبعد هذا يدهش معلمه من استثقاله ما يراه امامه من العقبات . ليس هو الذى يحق له المعارضة فى مثل هذه الطريقة المضادة للعقل بل ان كل ذي ذوق سليم وحكم صحيح يحق له ذلك

كل ما يتعلق بالخط يحملنا على اعتقاد ان الحروف الهجائية التى اخترعت اولاً فلما كانت الا صوراً لبعض اشياء كانت تنسب اليها اكثر من غيرها والخط ابتدئ باختصار فى الرسم وليت شعري هل محيت تلك الآثار البربائية بتمامها من الحروف الهجائية للغات الحديثة ؟ اقول ان هذا الامر محل للشك وانى اعرف رجلا كيتساً كان يرجع اشكال حروف لغتنا المطبوعة الى بعض الصور الخلقية نعم ان مضاهاته كانت احياناً تشف عن بعض التكلف ولكني أود عن طيب نفس اتباع طريقته للتوفيق فى ذهن اميل بين طائفتين من الاشكال تظهران لأول نظرة متباعدتين كأن بينهما بحراً رهواً . فاذا رسم مثلا سطحاً مستديراً يمثل به الشمس أكتب فى اسفل هذا الرسم اسم هذا الكوكب بالفرنساوية (Soleil) معتنياً باظهار حرف O مكبراً . فاذا كان الرسم «منزلاً» maison او «ثعباناً» serpent او «طريقاً متعرجاً» zigzag او «عيناً باصرة» œil بذلت جهدى فى بيان وجوه الشبه التى عساها توجد بين الحرف الاول من هذه الكلمات والاشياء التى تمثلها فى الذهن فان «اميل» يفهم بهذه الطريقة ان الخط هو كيفية أخرى للرسم بها بين الانسان مراده باوضح مما يحاوله بالرسم وفى زمن اقل

ان الذي يحير العقل ويضله هو إلزامه باتباع طريقتنا في النظر بدل أن نستدرجه من المعلوم الى المجهول استدراجاً سهلاً فتريثنا تبادر الى صب المعاني العقلية في ذهنه صباً على حين انه لم يكتسب بعدُ ملكة تميز هيآت الاشياء المادية . نضطره الى ذلك بفضل ما لنا عليه من الولاية المعنوية على اختلاف درجاتها فينا ولكني أرى اننا بهذه الطريقة نجني على ذهنه جناية تقضي بالاسف فان إلزامه بالتعلم وقهره عليه يسلبان معظم ميله الى الملاحظة والتعلم بنفسه . ان ضرر الاستبداد في البيوت لم يكن اقل من ضرر استبداد الحكومة

أرى ان الرسم والكتابة والقراءة هي ثلاثة ضروب من التمرين مرتبط بعضها ببعض بحيث لا ينبغي التفريق بينها في التربية الاولى على ان الرسم هو الذي تجب البداءة به فان في ذلك مزايا كثيرة أولها كفاية الطفل مؤنة ما للدرس من السآمة والملل في أول امره فان معظم الاطفال يكرهون الكتب ومن منهم لا يميل الى الصور ؟ كلا ان فيهم دافعاً طبيعياً يحملهم في الغالب على ان يرسموا بأيديهم ما يقع تحت ابصارهم فالرسم عندهم ضرب من اللعب خصوصاً اذا مارسوه بدعوة الغريزة واجتهدوا من انفسهم في أن يمثلوا أشد الاشياء استحالة لهم . ولا انكر ان ملكة التمثيل والمحاكاة لا يستوي فيها جميع الاطفال ولكن التأني كافٍ في تنبيهها غالباً

ليت شعري هل وُلد الانسان رساماً ؟ هذا ما لا اعلمه وانما الذي يثبته لنا التاريخ ان فنون الرسم تقدمت في جميع الأمم تقدم الكتابة والعلوم واذا كان الامر كذلك فالتاريخ يعيد نفسه في الاطفال كل يوم بأعيننا . ومن مزايا الرسم ايضاً انه يربي القوة المحاكية في نفس الطفل فان في فتح ابواب

الكون له قبل فتح الكتب أمامه مبادرة لارشاده له الى ينبوع العلم ، فحاكاة الجماد او الحيوان او النبات توجه نظره دائماً الى الصفات المقومة لماهية ما يحاكيه وان جاء الرسم ناقصاً . الرسم هو تمثيل اشكال الاشياء وحدودها بخطوط فيجب أن يكون الراسم قد رآها وقام في نفسه معنى ما يميزها عن غيرها من العلامات والصفات الأصلية . وأما الكلمات المكتوبة فانها لا تقتضي هذا العمل في الملاحظة فانه متى عرف الطفل التهجية وتركيب الحروف يمكنه ان يسمي عدداً لا نهاية له من الكائنات الحية والجمادات التي ليس له بها ادنى معرفة وتوجد له بذلك ملكة غاشة متى قويت وثبتت بالعادة أضلت معظم العقول البسيطة التي لا هم لها الا القشور.

لا يوجد الاستقصاء والتعمق في معرفة الاشياء الا حيث يوجد القياس والمضاهاة فاذا لم يعتد الطفل التفكر فيما يرى وملاحظته يكون قليل الاهتمام جداً بفهم ما يقرأه

آخر ما اذكره من مزايا الرسم انه إعداد أولي كبير النفع في تعلم الخط فان اميل بتخطيط صور الاشياء التي يستملحها تخطيطاً حسناً او رديئاً يمرن اصابعه على الحركة ويكتسب نوعاً من الخفة والدقة لتكوين الخطوط التي منها تتألف حروفنا الهجائية . ولكن الغرض انما هو إعداد الذهن للانتقال من الرسم الذي هو كتابة الصور الى الخط الذي هو رسم المعاني فلو أننا تيسر لنا ان نربط في حكم « اميل » التمثيل الخطي للاشياء المشهورة بالعلامات المعنوية التي تقوم مقامها نكون كأننا وضعنا على البحر القاصل بينهما جسراً . على انه لا شيء ايسر من تصغير الرسم في العمل فان « اميل » كلما رسم شجرة او ثمرة او حيواناً اقول له انك قد رسمت حروفاً من

حيث لا تدري غير انه توجد حروف اخرى اصعب من هذه رسماً وقراءة يكتبها المتعلمون فاذا هجت فيه بهذا القول داعية الشوق وحب الاعجاب هيجاً شديداً اكتب له الكلمة الموضوعة للشيء الذي رسمه وأحرضه على محاكاتها — أفعل ذلك كله وأنا اضحك

سواء عندي نجح في ذلك ام لم ينجح مادام يجتهد في كتابة تلك الكلمة ولا شك انه يجتهد في ذلك اذا حمل عليه بالمذق والمهارة ولا بد من اعادة الكتابة عدة مرات قبل ان يكتسب شيئاً من ممارستها ولكن الاصل باق على كل حال . وبهذه الطريقة يعرف « اميل » من هذا الحين السبب في الكتابة وكيف ان الناس قد استبدلوا برسم الاشياء حروفاً اصطلاحية تدل على ما يدل عليه الرسم وبفضله تكون مساحتها اصغر ووقت وضعها اقصر . هاتان هما مزيتا الخط على الرسم فقط وهما اللتان أطيل له الشرح فيهما لانهما اقرب الى فهمه ، وأدنى من علمه

ان الطفل يجري في تعلمه تكوين الحروف عادة كما يجري الدولاب فما احسنها طريقة للدخول في عالم المعقول

نعم اني عرفت بعضاً من المصورين كانوا لا يستصوبون مطلقاً ترك ملكة المحاكاة والتقليد مطلقة بلا قيد في الطور الاول من الحياة ويرون ان الطفل اغا يرسم في الغالب بالهوى لا بمقتضى الفطرة كما يعتقد وهذا الاطلاق يفسد عليه عمل يده بما تعتاد من عدم النظام . واذا صدقناهم يجب في تعليم الفنون الجميلة الولاية والتأديب . هذه مسألة يمكن اختلاف آراء الناس فيها كغيرها من المسائل ولكنها على كل حال ليست محل نظري فاني أراهن بالف بازاء واحد . على ان « اميل » لن يدعي استحقاق جائزة رومة على

الرسم فأيُّ وجه لي في الخوف او الرجاء في أن يصير بعدُ مصوّراً . ان جل ما ارغبه ان يكون رجلاً ولا شك في ان الشعور بما يوجد في الكون يعين على إنماء العقل والطبع . ومهما كانت رداءة رسومه فان اقل ما فيها انها تشهد له ببعض التفاتٍ توجّهَ الى ما يحيط به من الاشكال وهذا يكفيني منه الآن . فاذا كان ممن لهم ملكة حقيقية في الفنون فلا بد ان تظهر هذه الملكة فيه يوماً ما . أليس من الشواهد التي تذكر في هذا المقام ذلك الراعي الصغير الذي كان تعلم الرسم بنفسه اثناء رعي نعاجه ولما تكمّل فيه بعدُ بواسطة التعلم في المدرسة صار (الاستاذ رفاييل)

اني ارى ايضاً ان تعليم الكتابة كان يجب ان يسبق القراءة او ان هذين التمرينين يجب ان يتصل احدهما بالآخر . إن اندرويل ذلك الرجل المستنير المفكر جداً الذي لا بد ان تكوني سمعت شيئاً من سيرته في انكلترا كان يبحث من سنين عديدة عن طريقة معقولة لتعليم القراءة والكتابة . ولما كان في الهند اتفق انه رأى يوماً من الايام أمام مدرسة في ضواحي مدراس ثلةً من احداث الهنود يرسمون بأصابعهم حروفاً على الرمل فوقف يلاحظهم ملاحظة المتأمل وبعد ان عرف طريقتهم ضرب بيده على جبهته قائلاً : قد وجدت مطلوبي . ليت شعري كيف كانت هذه الطريقة ؟ هي ولا شك طريقة بسيطة جداً ذلك ان أطفال الهنود لما كانوا اقرب منا الى الفطرة وكانوا لذلك أعمل بمقتضيات العقل كانوا يبتدئون برسم الكلمة التي يرونها مكتوبة ثم يبحثون عن اسماء حروفها ويتهجون مقاطعها ثم ينتهون بقراءتها

أخصّ فائدة اراها في هذه الطريقة انها تشغل اليد والفكر فان الذي

يتعب الطفل ويسأمه عند ما يقف أمام كتاب انما هو التفاته الذي يطلب منه بلا بصيرة فان عمل الانسان بنفسه وبحثه وتخمينه وسيره من المعلوم الى المجهول طريقة فضلى في مخاتلة الضمير وخداعه

لست والحق اقول معجباً كثيراً بطرق التعليم المخترعة فانها تفوق الحصر ومعظمها خيالية لا تنطبق على ما في العالم الخارجي مطلقاً . يحضرني ان هولاندياً اعرفه خطر بفكره ان يجمع مجموعة من النعال وأراك تقولين ضاحكة : هذا خاطر غريب . نعم انه غريب ولكنه وقع فان الانسان لا يكون هولاندياً بلا شيء وقد وجدتُ في خزانته المقفلة بالزجاج كثيراً من الانموذجات المفيدة فيها من جميع الانواع ومن جميع البلدان والاعصر من البابوج ونعل المشخصين الى جرموق الصينيين ومن نعل متوحشي امريكا الشمالية الى بابوج كبراء الترك ففي هذه المجموعة من النموذجات المتعلقة بطبقات التاريخ المختلفة قد نسيَ صنّاع النعال شيئاً واحداً ألا وهو شكل قدم الانسان . اذا صح ما اقول فربما دعاني الى توجيه مثل هذا اللوم الى واضعي طرق التعليم . ذلك انهم يتعقلون كما ينبغي وبعضهم ليس مجرداً من ملكة الاختراع ولكن ينقصهم شيء من التفصيل وهو في الحقيقة هين ألا وهو شكل عقل الانسان في اطوار حياته المختلفة

الطريقة الفذة التي أراها تلائم حالة التلميذ انما هي سلامة ذوق معلمه ولا اقصد بذلك انه لا موصل غيرها يمكننا ان نسترشد به في التربية بل اني اعتقد ان كثيراً من الطرق العلمية التي استعملتها الاجيال الفطرية ولا يزالون يستعملونها ربما استعملت استعمالاً مفسداً في تعليم الاطفال فلا شك انك سمعت الحديث عن آلة (الحاسب الصناعي) واني لم اقف

تمام الوقوف على مزية هذه الآلة التي دخلت في بعض المدارس لتسهيل بعض عمليات الحساب على التلامذة بواسطة استعمال كرات من العاج ولكني على يقين من أنا أخذناها عن الصينيين وهي الحاسب الكروي المسمى في مملكة السمنة (سوان بان)

وعلى كل حال لعوذ بالله ان انتقد مثل هذا الاختراع بل اني آسف من عدم رجوعنا كثيراً الى الطرق الصناعية والممارسات العملية للامم المتأخرة لتسهيل الوصول الى بعض العلوم الاولية على المبتدئين

هؤلاء الاقوام المتأخرون هم اطفال التاريخ . قد عرفت الآن بعض القوانين التي جرى عليها في جميع جهات الارض تكوّن اللغات والكتابة والفنون والديانات والصناعة واننا لم نقف عند حد معرفة منشئ العلوم فيجب علينا ان البحث في العلامات التي تظهر فيها المعاني في اثناء الادوار الاولى للحضارة قد أدى بنا الى معرفة استعداد العقل البشري وطرق الكتاب في الوصول الى العلوم فإما ان اكون مخطأ خطأ فاحشاً واما ان يكون هذا الترتيب الطبيعي في التقدم هو الذي ينبغي اتباعه في تربية الاحداث

ان طرق التعليم عند الامم التي وقفت فيها حركة الترقي والتقدم عبارة عن شؤون دثرة وحالة وجود ومعرفة مستمرة فلا ينبغي أن تكون الا وسيلة وقتية للاطفال فانه وان كان في الاصل جاهلا مثل هؤلاء الامم لكنه يمتاز كل يوم عن الوحشي والبربري بملكة التحويل التي كأنها مرسومة في بنائه فهو يعرج بسرعة على معارج حالات بين الاجيال الدنيئة وبينها عقبات كؤود فلا يقف في عروجه هذا الا عند حد الذي تضعه له استعداده وملكاته الشخصية ونوع القوم الذين يعيشون بينهم وتأثير

الزمن فيه . ان نسبة طرق التعليم الى التربية كنسبة الاوضاع والقوانين الى المجتمع فهي لاتلائم الا حاجة وقتية من حاجات العقل فيجب اعتبارها جميعها وقتية فيكون من الحق حصر عقل التلميذ في بعض الاشكال التعليمية كما كان من الجور في القرن السادس رغبة ابقاء الامم على نظام القرون الوسطى وعقائدها

آثار علمية

« رثآء الامير عبد الرحمن خان »

كنا نتوقع من شعرآء العربية المجيدين في مصر والشام المباراة في رثآء فقيد الاسلام واعظم امرائه الذين عزّزه الله بهم في هذا الزمان الذي خربت فيه الممالك الاسلامية بأيدي امرائها فاذا هم لا يزالون مشغولين بمدح من لا خير فيهم عملاً بقاعدة « احسن الشعر اكذبه » التي هدمها الامام عبد القاهر الجرجاني (راجع المنار ج ٣١ م ٣) فاحتجنا الى الاقتباس من شعرآء بلاد الاعاجم فقد قرأنا في جريدة (أمير الاخبار) الهندية قصيدة لصديقنا العالم الاديب الشيخ احمد جيتيكر يرثي بها الامير عبد الرحمن ضيآء الملة والدين رحمه الله تعالى فنشرناها تنويهاً بذلك الفضل العظيم وتنبيهاً لفضلآء الادبآء الى قضآء هذا الحق لمستحقه . وهي

يبرق شملة نعيٌ يشمل الجللا[1] فزلزل السهل في الاقطار والجبلا

(١) لعل (شملة) التي اضاف اليها البرق موضع او جهة من جهات افغانستان مما لا نعرفه والجلل الامر العظيم